١١ ـ أومن بالإنســــان

الأستاذ عبد المنعم خلاف

آلة وحيوانات — عمل الطبيعة فى تكوين الانسان الواحد — أزهرت الأشجار وأدركت الثمار — مدنية خالدة ذات سلطان عجيب شامل — جئنا لنحيا لا لنموت — الحياة بالفكر فى الجاهل والعامل — عبقرية المادة وعبقرية الروح — الذكاء البطىء الجمـوح — إلى أحضان الأمم الكبرى

إذا جردنا الإنسان مما أسبغته عليه الحياة المدنية من أفانينها وأنواعها وأشكالها ظهر لنا أن البون بعيد جداً بين الإنسان الذى أخرجته الطبيعة ، وهـذا الإنسان الذى غيرته الصناعة وتعقيد الفـكر . وظهر لنا أن حياته الصناعية عالم مستقل منفصل خلقه هو . ولـكنه عالم غير خالد ولا متوالد إلا باطراد تقدم الإنسان . بخلاف مخلوقات الله فى الطبيعة فإنها أبدية دائمة تعمر بها الطبيعة .

وكلما فكرت فى الفرق العظيم بين حياة رجل على الفطرة وبين حياة رجل ألمانى أو انجليزى أو أمريكى وعقدت موازنة بينهما فى المأكل والملبس والملهى والمركب والمعمل والإنتاج والفـكر والإحاطة بآفاق الدنيا والتسلط على الطبيعة ظهر لى أن الأول يكاد يكون فى صفوف نوع آخر غير الإنسان ، وأن الثانى ينقصه الروح والعدل ليكون الإنسان المنشود البار بوصايا الله ؛ لأنه هو الذى أحسن الأخذ عنه وخلفه فى الماديات خلافة واسعة وتمت على يده الحياة وتنوعت وتشققت مجاريها وتوسعت . . .

ولا يجوز عقلا أو شرعاً أن يعطى الأول الحياة وعزتها ، وأن يتسلط على الثانى ما دام كل منهما على حالته . كما لا يجوز لحيوان أن يسخر إنساناً .

وكلما استعرضت معارف الإنسان المدنى المدونة فى كتبه وصحفه وألواحه وأرضه وآثاره أدركت مبلغ ما حمله من أمانات الحياة . وأسرار الدنيا ذات الصمت والعمل .

ولا شك أن الإنسان العادى الذى يقرأ صحيفة يومية يحمل ذهنه من قضايا العالم وأخباره فى الصباح والمساء ما لم يكن فى حسبان أحد من السابقين ووجدانه ...

ولا شك كذلك أن هذا كله قد ترك أثره الواسع الشامل فى تكوين الذهن الإنسانى الحالى وتكييف أعصابه وإحساسه بالحياة، غير ما كان عليه الناس فى زمن المواصلات والثقافات المحدودة .

إن الأقدار تصنع عقل الإنسان الحديث وقلبه صناعة تشترك فيها كل معارف الحياة العصرية

ومن الأعمال العظيمة التى تقوم بهـا الطبيعة الآن عملها فى تكوين الانسان الواحد الخاضع لمؤثرات واحدة . ونحن الذين يقع علينا تأثير أعمالها العظيمة ونعيش فى غيبوبة عن خطواتها بنا لا يدرك منا هـذا التأثير إلا الراصدون المسجلون الذين تجعلهم الأقدار مخصصين لرصد خطوات الحياة وتسجيل ظواهرها . وهؤلاء يكادون يكونون نادّين عن حبال الشبكة التى تلف غيرهم من أبناء الحياة .

لقد تركزت المعلومات فصارت القارات كالقرى .. وملايين الجنود كأصابع اليد . . . والدبابات كالنمال . . . والطائرات كالعصافير . . . وأخبار العالم الانسانى كله كأخبار الحى الواحد . . . !

وهكذا تتركز الحياة وتتلخص فى فكر الانسان وتختزل صورها العظيمة فى أرقام وحروف ...

* * *

هـذا العصر جدير أن يسمى « عصر الفوران والغليان » — على سبيل التشبيه بسطح ماء فى وعاء على نار — فقد لبث سطح الحياة ساكناً فى عصورها السالفة لا يتحرك إلا حركات موضعية . كما يلبث سطح الماء أول ما يوقد عليه فى النار . حتى إذا ما وصلت حرارته إلى درجة الغليان هدر وفار واشتد وقذف وتبخر وتحول ...

إن عوامل الحرارة كانت تحته من قديم ، ولـكنها لم تصل معه إلى درجة الانضاج والحركة السريعة والتحويل إلا أخيراً . وكذلك عصر الانسانية الحالى هو عصر ظهور كوامن أسرارها وأسرار الطبيعة ظهوراً شديداً متلاحقاً .

وقد انكشفت حيوات جميع الناس للناس ؛ فعلموا أنواعهم ولغاتهم وأديانهم ومذاهبهم فى الحياة

وقد كانوا ضائعين مغمورين تائهين كأسرة مفرقة فرقها حادث ... ثم جمعتهم الظروف مرة ثانية ...

إنى أتخيـل صورة الدنيا فى عقول ساكنيها الأولين ، وصورتها الآن فى عقول بنيها المثقفين ، فيصيبنى دهش مشوب بفرح وبهجة وشكر لله على تسديده الإنسان إلى غاية ابتدأت تنكشف وجوهها

وكان الأنبياء والحكماء القدماء وحدهم هم المدركين وجهات الحياة . وكانوا في الناس ما يكون البصير بين عميان ، والأب الكبير بين صبيان ، والراعي بين قطعان . وكان قليل من الناس هم الذين يدركون ما يشيرون إليه . ولكن الآن صار العلم والدين والإدراك الصحيح شيئاً مشاعاً كالهواء والماء ، تقاربت فيه المعتقدات والآراء

* * *

أجل ، هذا زمن حصاد جهود الإنسانية ؛ فقد أزهرت الأزهار وأدركت الثمار ، وظهر الحقل مستوى السوق مستغلظ الأعواد ، قد أينعت فيه عُلب الأسرار وحان قطافها ! !

أنظر في بقاع الأرض جميعها تجد إنسانية تفتح عيونها وتستيقظ من غفلاتها لتدرك الحياة الحديثة وتشترك فيها وتتلاقى مع غيرها في خدمتها . وقد زال الانبهام والغموض اللذان كانت تحسبهما عقول الإنسانية القديمة والمتوسطة في ظواهر الحياة . وصار الإنسان معتمداً على نفسه وحسابها الدقيق وأخذها بأساليب الطبيعة في الإنتاج والاختراع ، وترك الاعتماد على الأماني ، فضاقت دائرة الاعتماد على الأقدار ...

ولنلتفت إلى الماضي كثيراً لندرك مدى ما كسبناه وحصلناه من محصولات الحياة كإنسانية واحدة وضع كل شعب وكل حضارة لبنة في بنائها ، حتى خرجت هذه الحضارة العالمية المشتركة التي اقتحمت كل قطر وكل مدينة في الأرض ، وصارت كقدر الله الذي لا مرد له ولا مفر منه

إنها حضارة باقية خالدة لن تبيد ولن تفنى ولن ترتد ! إذ أن بذورها ألقيت في كل مكان ونبتت فيه . فلئن ذهبت أوربا إلى الخراب والدمار لسوف تبقى أمريكا . . . ولئن ذهبتا معاً لسوف يحمل المشعل أمم الشرق وتلك الأمم المنثورة في أرض الله وجزر المحيطات وغيرهم ممن اقتنعوا بأن هذه المدنية هي نبوة الطبيعة ذات المعجزات الداعية التي لا مفر من الإيمان بها والعمل لها وأن هذا العصر هو أوان حصاد الغلال وجني القطاف التي زرعها وتعهدها الأقدمون ، وزادت كل أمة في ميراثها حتى صار فيها من كل قطر وِرْدٌ ومن كل أمة مدد ورِفْدٌ

* * *

إن هذه مدنية فرضت نفسها فرضاً على الناس جميعاً . فرضت آلامها وشرورها كما فرضت إسعادها وخيراتها وعلومها ، وصار الناس لا يستطيعون منها فراراً بعد ما دخلت عليهم أقطارهم قسراً واقتداراً

هي قدر لازم لا فكاك منه كأنها الرياح والأمطار والأشعة

ومما يؤكد أنها خالدة مؤيدة انتشارها في كل مكان وليست كالمدنيات السالفة الموضعية ذات العصبية القومية . لأنها قامت على العلم الذي لا تتناقض حقائقه بتعدد الأماكن والأجناس ، بل تتلاءم وتتوافق بتوافق قوانين الطبيعة الواحدة

وكانت المدنيات السابقة تجارب وجذوراً متشعبة لجذع عظيم هو هذه المدنية الحالية

ولم يحدث في الماضي أن صبغت مدنيةٌ الناسَ جميعاً كما فعلت هذه المدنية ، فخضع لها الموحد والوثني والملحد والمؤمن والزنجي والإسكيمي والشرقي والغربي

ولم يحدث أن وجدت ميادين كثيرة مشتركة بين الناس جميعاً كما وجدت ميادين النشاط العلمي والآلي والصناعي والسياسي والأدبي في رحاب هذه المدنية .

ولم يحدث أن اشتبكت مصالح الناس جميعاً كما اشتبكت الآن بفعل السرعة وسهولة الانتقال وتبادل المنافع وتشعب الاحتياجات

ولم يحدث أن درست ثقافة واحدة في مدارس الأمم جميعها كما درست هذه الثقافة العصرية .

فأي مكان نجا من سلطان مدنية الزمان ؟

أي طريق لم تجس خلاله السيارة ؟ وأي جو لم تخفق فيه الطيارة ؟ وأي بلد لم يستصبح بنور الكهرباء ؟

إن هذه المدنية تحيط بالإنسان في كل أفق من آفاق حياته . وإني استعرض الآن كل ما يحيط بي وأنا أكتب فأجد جميع ما تقع عليه عيني قد اشتركت فيه آلاف العمليات الإنسانية المعقدة . وقد صار إحساسي بها كإحساسي بضرورات حياتي . وأكاد لا أرى شيئاً خالصاً من يد الطبيعة وحدها إلا جسمي ... وحتى هو لم يسلم من هندسة الخلاق و « رتوشه » !

ويمكنك أن تجرد الأرض مما فعل الإنسان فيها وما عقده وركبه ، لتدرك مدى الحياة الأرضية من غيره ومدى العالم الذي أحدثه هو ... وإذا ألقيت نظرة على شارع في نيويورك أو لندن أو القاهرة فإنه يروعك أن ترى ما في مخازنه ومناظره وآثار الأيدي التي عملت فيه ، حتى لا تستطيع بعض الأذهان أن تتخيل الدنيا خالية منه من طول الألفة وطول الغفلة

عن التفكير فى مبادئ الحياة . . .

طوفوا فى شوارعكم أيها الناس بقلب ذاكر للطبيعة مدرك لبادئها لتعرفوا مقدار ما بينكم وبينها ومقدار قوتكم الابتداعية فتتلفتوا لأنفسكم متعجبين محترمين محافظين عليها وعلى قواها الفكرية والانتاجية من الضياع والذهول والغفلات !

إن أفراح الحياة تغمر قلبى حين أطوف بجسمى فى الشوارع العظيمة ، أو حين تطوف بى الحياة فى دور السينما ، فأرى عجائب ما استحدثه الإنسان فى عوالم المواد والمعانى ...

ولست أزهد فى رؤية الحياة المادية وتقصى دقائقها ، لأن كل دقيقة منها ترسل فى قلبى دقيقة من التعجب والإيمان ...

ما جئنا للحياة لنموت ونستحضر فلسفة الموت من أول يوم ، والقبر ليس نهاية ، وإنما هو بداية مرحلة تالية ... فمن الذين يجعلون القبور نصب أعينهم فيهونوا من أجلها كل عظيم ولو كان الصحة أو العلم أو التفاؤل ، أن يعلموا أنهم جاءوا ليحيوا ويحسوا الحياة عميقة فيما خلق الله من شىء ، وينتفعوا به انتفاع الحلال والعقل والحفظ ...

ومن الكفر أن نترك الأجسام فريسة للجراثيم الفاتكة والآفات وعوامل الشؤم انتظاراً للموت الأكبر .. فيدب فيها منذ ولادتنا ..

كذلك يجب أن يكون إيمان الرجل المتمدن ... إيمان البصير الواثق بأن عمل النفس البشرية فى المادة باب إلى الإيمان لا الكفر كما يتوهم الأغبياء البلداء الأغرار !

إنى لا أعيش فى نفسى وحدها ، ولكنى أعيش فى نفوس بنى الدنيا جميعاً ، لأرى الحياة بعيونهم من آفاقهم ، حتى أخرج ومعى كثير من أسرار الحياة فى القلوب والعقول ...

وأنصح لأصحاب الإيمان التقليدى أن يستحدثوا فى قلوبهم ونظراتهم ما أستحدث ، ليعرفوا أى لذة وأى إيمان مضاعف يغمر قلوبهم ...

وأنصح لأصحاب النظرة المادية والذهول عن المعانى ، أن يستحضروا أرواحهم وراء كل نظرة وكل عمل وكل علم ... فإن هذا هو الوضع الحقيقى لحياة الفكر والاستعمال الحق للروح وقوى الجسم ...

ولنعش بأفكارنا وأرواحنا دائماً ، سواء أكنا فى غايات خط الاستواء ، حيث الطبيعة بكر غير مفضوضة لم يطمثها إنس ولا جان ... أم فى مصانع « فورد » بنيويورك ، حيث يدور الفكر مع الحديد فى ضجة وتصفيد وقدرة !

* * *

الغربيون قدموا لنا عبقرية المادة ، فلنقدم لهم عبقرية الروح ... فلنخدم أرواحهم كما خدموا أجسامنا ... !

إنهم استغنوا بذكائهم عما وراء الطبيعة ، وقد كفاهم ذكاؤهم تدبير أمورهم كلها فيما يخيل إليهم مع أن الواقع أنهم فى شبكة الأقدار العليا والتدبير الشامل لحياة الأرض . والرجل الذكى غنى بالحيل وتجدد الأفكار . والغنى يبث دائماً على الطغيان . ومن هنا أتى الغربيون ودخلت عليهم نكبات الحياة لأنهم اعتمدوا على غنى ذكائهم وحده

وحين يستغنى الطفل بذكائه وقدرته عن ثدى أمه ورعايتها ، ويعلو مستواه البدنى والعقلى عن مستواها ، فذلك عهد ابتداء عقوقه إياها إذا لم يكن ذا ذخيرة موفورة من الإدراك والحب والرحمة والأدب ، وما دام ينسى أنه قطعة قدت من جسمها وقلبها ، وأنها الوشيجة الوثيقة بينه وبين أرومة الحياة والطبيعة

وكذلك ينسى الإنسان الذكى عجزه أمام قهر صاحب الطبيعة ويستغنى بذكائه عن الاستمداد منه والاستيحاء منها فيصير مخلوقاً يكاد يكون لا صلة بينه وبين ما فى الطبيعة من موجودات تسير طائعة بالإلهام والتوجيه

فهل نترك الغربيين يذهبون بأرواحنا وأرواحهم فى أودية بعيدة عن الرحمة والصداقة والأشواق إلى المجهول والبحث عن الله ذى الجلال ؟ !

أنتركها ونتركهم للحديد البليد القاسى يطبعها بطابعه ، ويوحى إليها بيأسه سياسة البطش والطغيان ، ويشغلها بضجته المنكرة عن همسات القلوب وأصوات الضمائر ؟

إننا إن تركناهم وتبعناهم على الخير والشر فسوف تكون فرائسهم وجزر سيوفهم وطعين طواحينهم الحديدية الحمراء !

فلنذكرهم بمبادئ الطبيعة أمنا وأمهم ، تلك المبادئ التى فيها من منطق الوجدان أكثر مما فيها من الذكاء الجامح وقوة الاختيار من غير ضابط من هدى الطبيعة

وإن الطبيعة لتذكر أبناءها دائماً بوصايا الحق والعدل كما تذكر الأم البسيطة أبناءها الأذكياء بوصاياها وعواطفها التى